ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

@ketab_n
Follow Me

ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

تأليف: شافي آيين / تصوير: كيم مانريسا

ثـــورة نوبـــل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

تأليف

شافي آيين / تصوير: كيم مانريسا

Textos: XAVI AYÉN

Fotografías: KIM MANRESA

ترجمة

ناصر مريخان

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E

نجيب محفوظ

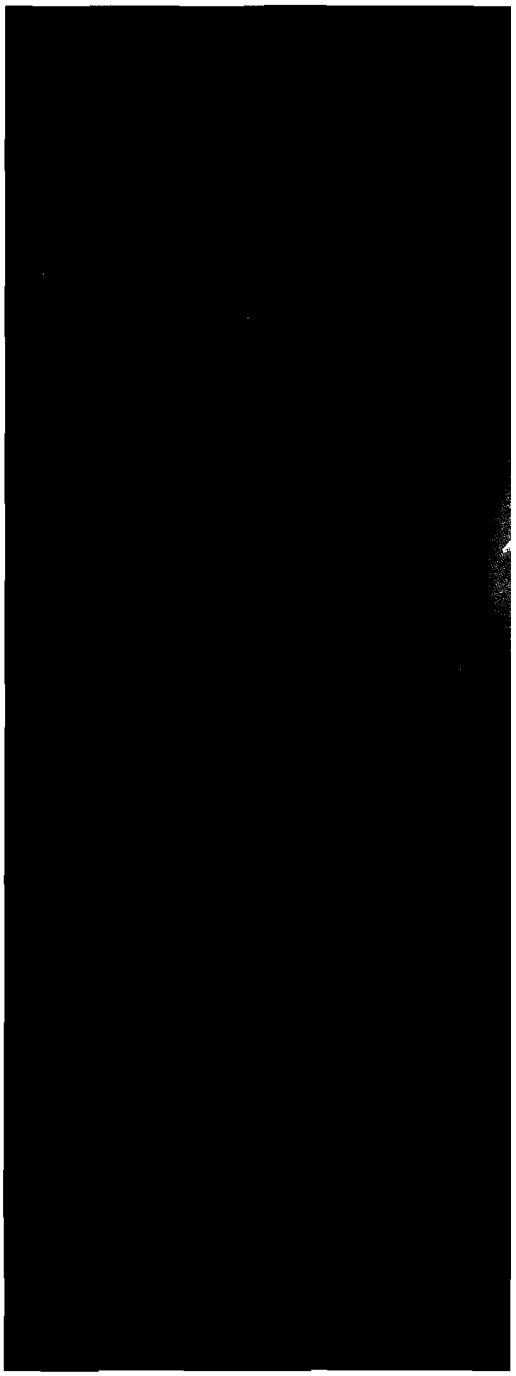

"لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة، لكن أصدقائي هم عيناي وأذناي وريشتي".

حمل نجيب محفوظ مقاهي القاهرة ودوائرها الاجتماعية إلى العالم أجمع، وخاصة العالم الغربي الذي اكتشف الرواية العربية من خلال أعماله. بعمره الذي يناهز الخامسة والتسعين يعيش نجيب محفوظ مع آثار هجوم رجعيٍّ، أعمى وشبه أصم، ولكنه لا يزال يتردد على دوائره الاجتماعية في مقاهٍ أخرى أكثر أماناً، ويعير أحلامه حالياً انتباهه، فيصطادها ليحولها إلى نصوص قصيرة؛ نوع جديد من الأدب. يقول محفوظ إن الرجعيين الذين لطالما كرهوه يخسرون المباراة.

لا يستطيع نجيب محفوظ رؤيتنا أبداً، ولا حتّى سماعنا بشكل واضح. حين وصلنا إلى غرفة الطعام في شقته في القاهرة، استقبلنا بالجلابية والشبشب، فشدَدنا على يده بحرارة لهنيهة، ليتمكن من تخمين التأثر والإعجاب اللذين يثيرهما فينا. وحين دعانا للجلوس، قدّمت لنا زوجته، ذات الأناقة الشرقية والحجاب الأزرق، الشاي مع حلويات مختلفة. شرحنا سير المقابلة لأحد أفضل أصدقائه: وهو الكاتب محمد سلماوي الذي ترجم له أسئلتنا إلى اللغة العربية، صارخاً على بعد عشرين سنتمتراً من أذنه بصوت مرتفع جداً. إن المشهد الذي يتكرر لأيام عدة (محفوظ المولود في العام 1911 يتعب من الكلام) أزاح هالة الوقار، على عكس ما قد يبدو. أشار ميزان الحرارة إلى 37 درجة. كنا في القاهرة؛ قاهرة نجيب محفوظ الصاخبة. كانت أيام الحائز على جائزة نوبل للآداب في العام 1988 تشبه بعضها بعضاً، فدائماً ما تنتهي بقرص دواء («أحتاج إليه لأنام»). فهو يستيقظ باكراً جداً في الصباح، وأول ما يفعله هو التركيز في ما يلي: «أحاول حفظ ما حلمت به، فلعلّني أكتب عنه». بعد الفطور، يستقبل صديقه السيد صبري الذي يقرأ له الصحف اليوميّة وبعض الكتب. كان الأمر بمثابة صراخ في أذنه أكثر منه قراءة، كحال السيد سلماوي خلال مقابلتنا. في ما بعد، وحين ينتهي من تناول الغداء، يخرج محفوظ إلى الدوائر الاجتماعية، ليتحدث مع أصدقائه؛ وهم مجموعة مختلفة كل يوم (مع أن بعضهم قد يتكرر دورهم) في مقاهٍ وفنادق مختلفة في المدينة، ويبقى كذلك حتى العاشرة ليلاً.

لا شيء يوقف محفوظ الذي سيحتفل بذكرى مولده الخامسة والتسعين. هو أعمى وشبه أصم ولا يستطيع الحديث لوقت طويل من دون توقف. تتضمن نشاطاته اليومية جلسات علاج فيزيائي ثلاث مرات في الأسبوع. كيف كانت ستصبح حياة نجيب محفوظ لولا الطعنة التي تلقاها مساء الرابع عشر من أكتوبر 1994؟ في ذلك اليوم، بعد خروجه من منزله، هاجم الكاتبَ رجعيّ تمكّن من طعنه بسكين في عنقه. بقي حياً لأن الصديق الذي كان يرافقه في تلك اللحظة كان طبيباً، ولأن الهجوم حصل قرب مستشفى. ومنذ ذلك الحين، يحمل محفوظ آثار ذاك الهجوم، حيث

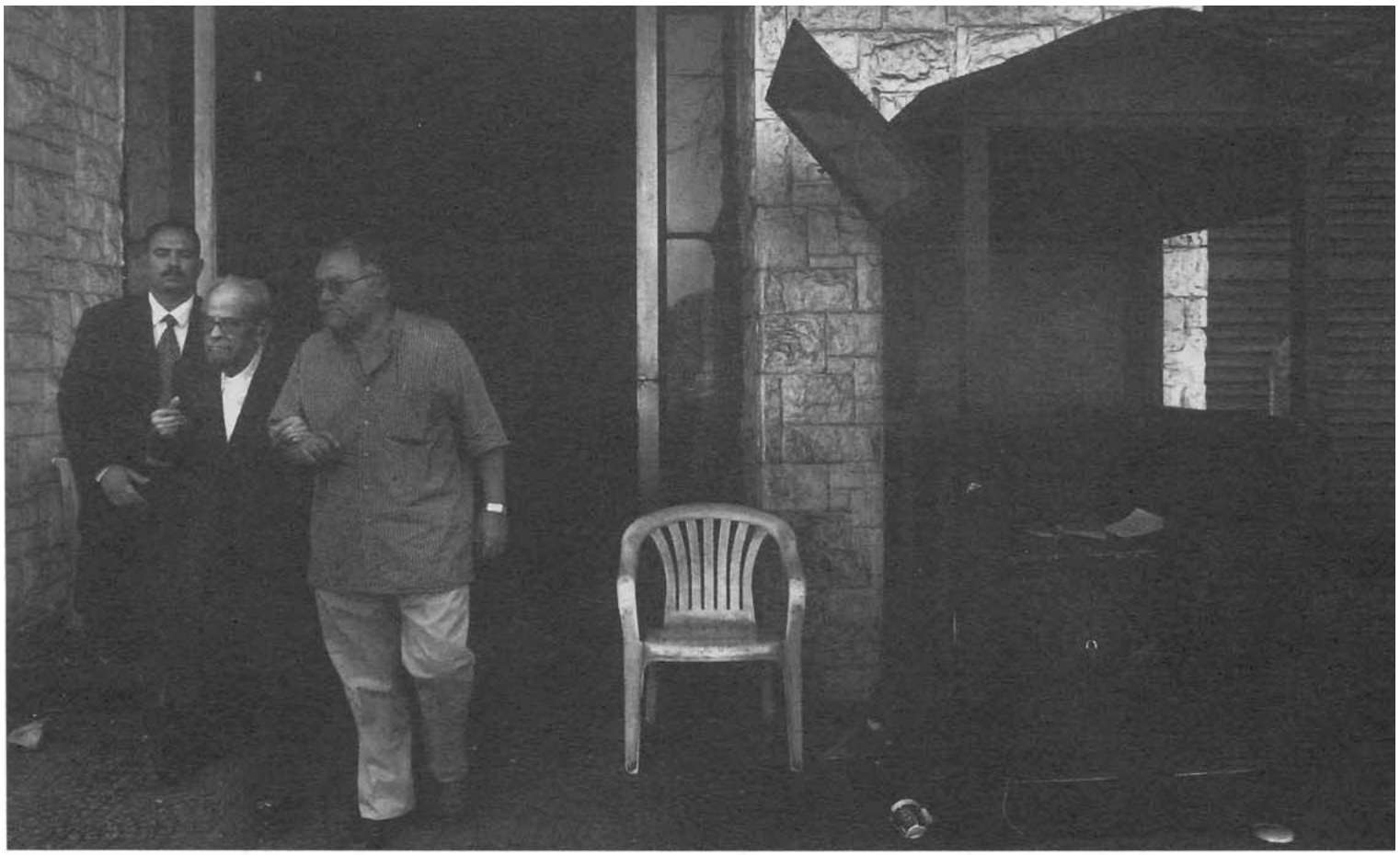

أصيبت يده اليمنى بالشلل. يقص محمد سلماوي قائلاً: «اضطر إلى التعلُّم من جديد كيف يمسك القلم كما لو أنه طفل؛ هذا الرجل الذي حصل على أهم جائزة أدبية في العالم! ولم يشتكِ. في النهاية، وبعد الكثير من التدريب، تمكن من الكتابة نصف ساعة في اليوم، ولو أن خطه لم يعد إلى وضوحه السابق». يعرض علينا محفوظ بجدّية خطه الحالي. إذ يستطيع كتابة بعض الجمل القصيرة فقط أو توقيع الكتب.

يبدو كخطّ طفلٍ. مررنا في الصباح بأزقة وأسواق ومقاهٍ تقليدية موصوفة في أعمال محفوظ (الذي ينبّهنا إلى أنه «من غير الضروري أن تزورا هذا، فهو الآن مطعم حديث»). عند المساء رافقناه إلى دوائره الاجتماعية الأسطورية في القاهرة. اليوم يوم أحد، ونحن بانتظاره أمام باب منزله، في المكان نفسه الذي طعنوه فيه. كان نشاط الشرطة واضحاً. ففي الشارع، كان هناك ثلاثة رجال من الشرطة، وكان شرطي آخر يقف في كابينة أمنيّة. كما كانت سيارة تاكسي مع سائق تنتظره قرب منزله. في حقيقة الأمر، كان السائق عنصر مرافقة، ومهمّته أن يقلّه إلى أحد الفنادق. وأخبرونا لاحقاً عن وجود عناصر عدة من المباحث كانوا يجوبون الحيّ (نشكّ في رَجل توصيل البيتزا الذي كان يظهر بين الفينة والأخرى مع الحمولة نفسها). حين رأينا محفوظ، يسنده صديقه فتحي هاشم، وهو الطبيب الذي أنقذ حياته في العام 1994، استوعبنا رمزيّة هذه النزهة اليومية وكأن مشية الكاتب البطيئة تصرخ: «أتريان؟ لم يتمكّن منّي الإرهاب، فما زلت أذهب إلى الحلقات الاجتماعية».

احتفالاً بالصداقة

لم يغير الاعتداء إلا مكان الاجتماع؛ لأجل الأمان، إذ توجب استبدال كازينو الأوبرا وقهوة ريشة وقصر النيل... بأماكن أكثر أماناً. اليوم دور مقهى نابليون، الموجود في أحد طوابق فندق شيبارد الفخم. كان محفوظ والدكتور هاشم أول الواصلين. يحدثنا العربي الوحيد الحائز على جائزة نوبل قائلاً: «اضطررت إلى التخفيف من عدد سجائري. فبدلاً من تدخين ثلاث سجائر في اليوم... اقتصر الأمر على اثنتين». يبتسم بخبث وهو يقول ذلك. يبدأ الأصدقاء

بالوصـول. قصـد لقـاء ذاك اليـوم، صحفيـة إيرلندية، بالإضافـة إلـى المخرج السـينمائي عصـام دراز الذي صـور فيلمـاً وثائقيـاً عن الكاتـب، والمهندس محمد الكفـراوي، ومحـرر فـي صحيفة **الشباب**... يعرفون عن أنفسهم صارخين إلى محفوظ الذي يومئ برأسه أو يبتسم أو يباشر حديثاً، حسب الحالة. إلا أنه يبقى صامتـاً معظـم الوقـت، غارقاً في ظلمتـه فيما الباقون يتحدثون. يبدو سعيداً، كما لو أنه يكتفي بمعرفته أنه محاط بالأصدقاء.

عرّف السـينمائي دراز عن نفسـه خمس مرات، لأنّ صوتـه الناعـم واللطيـف لـم يصـل إلـى مسـامع محفـوظ. وكان صـوت المهنـدس كفـراوي الرخيـم

أفضل بكثير، وقد أحضر له هذا دزينة قصاصات من جرائد الأسبوع الأخير، وقال: «لنعلّق على اللعبة يا نجيب». وهكذا، تحدّث محفوظ وكفراوي عن نتائج كأس العالم لكرة القدم، عن دور جيري آدامز في السلام في إيرلندا، عن الصراع بين فتح وحماس في فلسطين، وعن تزايد المتدينين المتشددين في البلاد. مرّ المساء مع الكولا وأكواب الشاي (لا أحد يتناول المشروبات الكحولية)، وتحوّل إلى احتفال بالصداقة. قال لنا محفوظ في اليوم التالي: «هذا صحيح، الصداقة في هذه المرحلة من حياتي هي أكثر ما يهم، فمنها أحصل على الدعم والقوة اللازمين لأعيش، يوماً بعد يوم. لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة، إلا أن أصدقائي هم عيناي وأذناي وريشتي. لولاهم لكانت هذه السنوات هي الأسوأ في حياتي. عجزي يعزلني عن العالم، لذلك عليّ سؤالهم عن آخر الأخبار في مجالات الكتب أو الموسيقى أو الفن. المعلومات القليلة التي أحصل عليها من ذلك مهمة جداً لصحتي النفسية والجسدية». مُجمَّع الشقق التي يعيش في إحداها محفوظ إلى جانب النيل (حيث يقطن من قبل أن يستلم جائزة نوبل) لا يبدو فاخراً أبداً، والمنطقة تشبه أي حي إسباني من الطبقة الوسطى، مع أن الواجهة الإسمنتية متسخة، وأجهزة التكييف التي يعلوها الغبار تبدو وكأنها مصدر خطر على المارة، إلا أن الحي من الداخل يدلّ على اختلاف ساكنه: الزينة الأنيقة، والأُصُص المليئة بالزهور، والبسط على الجدران، وقطع مختلفة من الأعمال اليدوية...

كيف يكتب محفوظ حالياً؟ «أفكر في قصة، ثم أحفظها وأمليها على أحدهم». يعمل حالياً على رواية **أحلام النقاهة**، وهي عبارة عن قصص قصيرة تُحيط بتجاربه في الأحلام. يعلّق قائلاً: «هذا يلائم حالتي الصحية، فالأحلام تأتي من دواخل الأشخاص، وليس من الضروري أن تسمع أو ترى للإلمام بها كاملة. هذا ما يمكنني فعله الآن، إذ لا أحتاج إلى أن أعيش تجارب أخرى، لأنني أعيش تجربة داخلية. أرى حلماً، وأعيشه كحقيقة، وبعدها أحوله إلى ما يشبه الرواية؛ إلى أمر كامل ذي معنى». هذا هو سبب كون كتب المؤلف الأخيرة عبارة عن مجموعة قصص قصيرة جداً، من صفحة واحدة غالباً، بل لعلها أقلّ من ذلك. «أقطّر كل جملة وفكرة حتى أعثر على جوهرها. بعض النقاد شبّهوها بالهايكو، لكن الذين يكتبون هذه القصائد اليابانية لديهم حرية اختيار الشكل الذي يفضلونه. أما في حالتي فالحاجة هي التي اضطرّتني إلى الاختصار. لا أستطيع إلا كتابة القصص القصيرة، المركزة. ولا أستطيع الاستمرار لأكثر من نصف ساعة لأنني أتعب، مع أنه يمكنني أن أمضي أياماً وأنا أفكر في الأمر». بالرغم من التواضع الذي يتكلم به عن أعماله الحالية، فقد كتب بعض النقاد أن محفوظ يخترع في مؤلفاته القصيرة نوعاً أدبياً جديداً. إنّ عملية تحديث المجتمع موضوع أساسي في أعماله، بالإضافة إلى اهتمام رجل الشارع بالتفكير الحديث والأفكار الأوروبية. «أجل، التحديث عملية طبيعية، فالحضارات تتطور تدريجياً وتفاعلها مع بعضها أمر أكيد الحدوث. لا يمكننا تجاهل حضارة أخرى لأنها كلها تتمتّع بشيء من الإنسانية. المصري منفتح بطبيعته، وموقعنا الجغرافي بين القارات القديمة الثلاث سمح لنا بتفاعل مستمر مع الثقافات الأخرى. طبيعة المصري هي التسامح، فهو بطل حضارة لم تغلق أبوابها يوماً أمام غيرها من الحضارات التي مرت فوق أرضها على مر التاريخ». صديقه المسرحي والصحفي ورئيس اتحاد الكتاب سلماوي هو من يدفع محفوظ لينشر مقال رأي أسبوعياً في الصحافة. يشرح سلماوي قائلاً: «أجيء لرؤيته كل نهار سبت، فأقترح عليه موضوعاً ما ونباشر حواراً، فأطرح عليه الأسئلة في بعض الأحيان، وفي بعضها الآخر لا أجد حاجة إلى ذلك لأنها تخطر بباله كلها». قبل فترة، حصل هجوم إرهابي ضد سياح في شبه جزيرة سيناء، وهو ما عزز الشعور المتنامي بأن خطر الإسلام حلّ مكان التهديد الشيوعي. يقول محفوظ مصدوماً: «كيف يمكن أن يعتقد بعضكم أن الإسلام تهديد؟ ليس أمراً صحيحاً نعت هذا الإرهاب بالإسلامي، مثلما لا تجوز مناداة العنيفين في الغرب بالمسيحيين».

«الدين الحقيقي يشكل هدف الإنسان النهائي. لكن، هناك من يفسر الأمر بطريقة مغايرة للوصول إلى مآربه الخاصة. هذه الهجمات هي من عمل الإرهابيين الذين يريدون أن يؤذوا السياحة والاقتصاد في مصر، لكنهم لن يتمكنوا من ذلك، لأن السياح لا يزالون يأتون كما لو أنهم اعتادوا على الأمر». وعن أسباب العنف، يبدي حذره قائلاً: «إنّ الرّغبة في تحقيق العدالة الاجتماعية أو السياسية لا تبرر الإرهاب، مع أنها في الحقيقة عاملاً هاماً في أصل الظاهرة. والغرب أيضاً مسؤول عن ذلك إلى حدٍّ ما، وهو أمر يقلقني، لكنني أعتقد أنه سينتهي. يجب ترك المصريين ليحلّوا مشاكلهم بأنفسهم: فكلما زادت العدالة والمساواة في البلد، كلّما ضعف التعصب كثيراً».

تحدّثنا عن روايته **أولاد حارتنا** التي نُشرت في بيروت ولم تُنشر أبداً في مصر. قرأنا في مصادر عديدة أن محفوظ تقرّب من السلطات الدينية ليتمكن أخيراً من نشر كتابه في بلاده. وقد نفى قائلاً: «على الإطلاق. لم أتصل يوماً بالأزهر، وإليكم ما حدث: في العام 1959، أخبرني المسؤول عن الرقابة أنه من غير الممكن طباعة الرواية في مصر، لتجنب شكاوى الأزهر، لكنه قال لي أيضاً إن أي دار نشر أجنبية ستقبل بنشره، وإنه لن يسمح بنشر أي نقد سلبي في الصحافة المصرية. وهذا ما حصل. مؤخراً، وبعد طرح فكرة طباعتها في مصر من جديد، قلت إنه علينا الحصول على موافقة الأزهر لنقوم بذلك. لكنني لست على صلة بهم، وأعتقد أنه لا يتوجّب على أي مؤلف أن يطلب إذن أي سلطة لينشر أعماله».

من جهة أخرى، «أعرف أن الرواية لا تعادي الدين، وأنا لا أعتبر نفسي كافراً. وفي حينها، كنت مستعداً للدفاع عن الكتاب أمام لجنة دينية كان يفترض بها أن تجيء إلى منزلي، لكنها لم تأتِ يوماً. فللمفارقة، كان هذا الكتاب ينتهي بانتصار الإيمان، وأعتقد أن أيَّ قاض عادل كان سيسمح بنشره، لكنني الآن أشد تعباً من أن أدافع عن نفسي». الحق أن رواية **أولاد حارتنا** هي السبب في الاعتداء عليه في العام

القضية: ضد التشدد

نجيب محفوظ هو عميد الكتّاب والمثقفين المصريين الذين يحاربون تصاعد التعصب في مصر، والذين يدافعون عن وجود دولة علمانية تتجاوز حدود خيارات مواطنيها الدينية. هو رمز للصراع ضد التعصب، ومدافع عن الديموقراطية وعن تحرر المرأة، ولا يعتقد أن التشدد يفوز باللعبة. على سبيل المثال، «المرأة تزداد تحرراً يوماً بعد يوم. في بدايات القرن الماضي خضعت كلياً للرجل، لكن وضعها أخذ يتحسن مع كل جيل جديد. واليوم لدينا وزيرات وسفيرات ورسامات... نعيش تحرير المرأة». في العام 1994، حاول المتشددون اغتياله، في الوقت الذي جاء فيه وفد رسمي من جماعة الإخوان المسلمين قبل شهر لتهنئته بذكرى ميلاده. «قالوا لي إنهم يرحبون بالأدب والإبداع. هذا تقدم إيجابي بالرغم من خلافاتنا، لأنهم يكتشفون أن هذا المجتمع لا يقبل بعض الأمور، وأن الطريق الوحيد هو النظام البرلماني والأساليب السلمية».

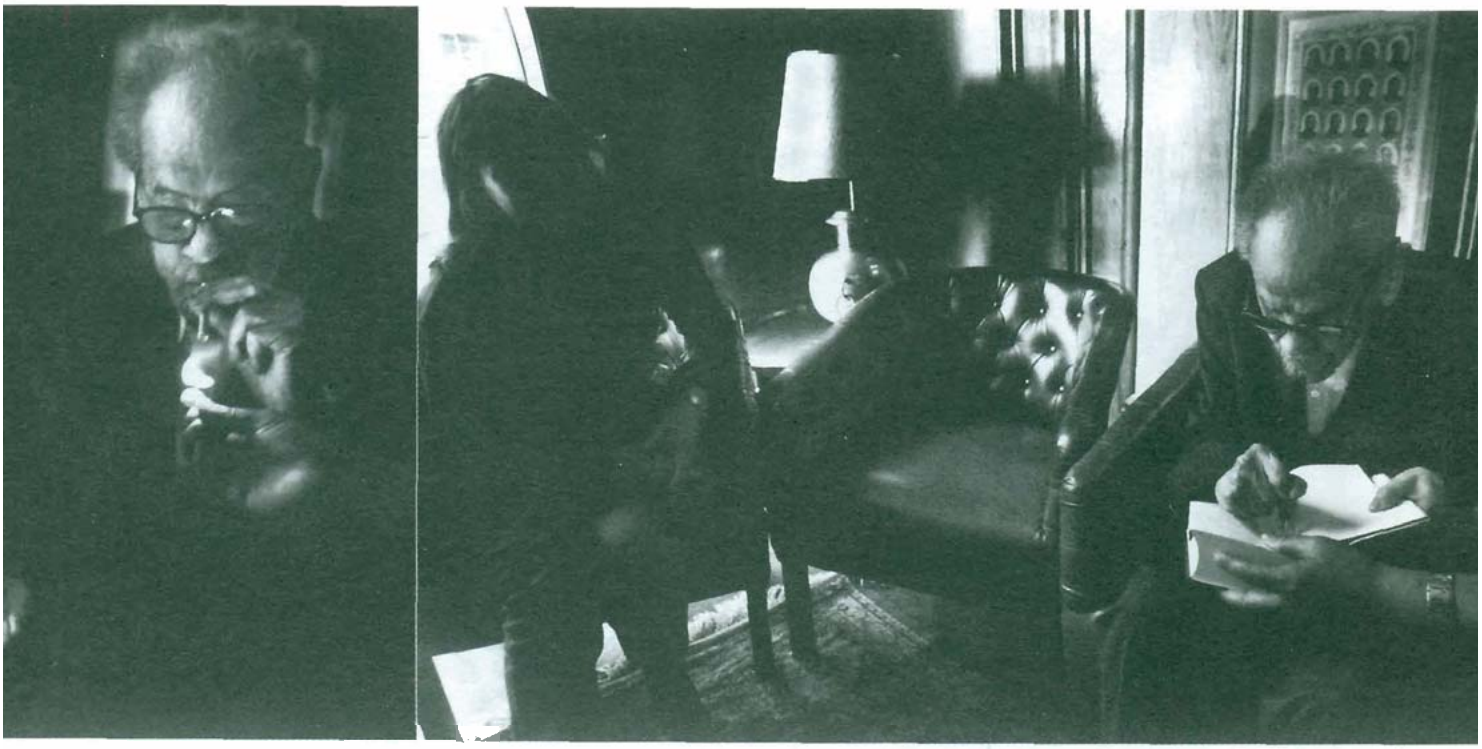

1994. «لا أعرف ما الذي جال بذهن المعتدي؛ لا بد من أن سادته أقنعوه أن ذاك الكتاب يهين الإسلام، وهو أطاعهم ببساطة. فلقد أكد في تصريحاته أمام السلطات أنه لم يقم حتى بقراءة الرواية».

– ماذا تذكر عن الاعتداء؟

– لا أذكره. لو كان في وسعي رؤية الشاب الذي هاجمني، أو تذكر أنني مددت يدي لأصافحه معتقداً أنه معجب (قالوا لي إن هذا ما فعلته)، فقد أصاب بالأذى. لا أذكر إلا أنني استقللت السيارة وحسب. وإنّ عدم تذكّري التفاصيل المزعجة نعمة ربّانية.

أحاديث المغرب كتاب حِكَم وقصص رمزية اعتبرته نادين غورديمر الجنوب إفريقيّة أثمن من سيرة ذاتية، لأنه وسيلة لمعرفته من الداخل.

أدبياً، وضع محفوظ اللغة العربية على الخارطة العالمية برواياته التي يزيد عددها على الأربعين رواية، وقصصه الثلاثمئة والخمسين ومسرحياته الخمس. في الحقيقة، إن أعماله وحدها دفعت النقاد الغربيين لقبول وجود رواية عربية من دون نقاش، كما توجد الرواية الروسية والفرنسية. قبل محفوظ، لم تكن هناك إلا لغة أدبية قديمة، واللهجة المحلية؛ وهو من أوجد ما يسمى باللغة الثالثة. هو متواضع بطبيعته، يقص علينا صديقه كفراوي ما يلي: «في أحد أيام العام 1988، قبل النوبل، هكذا، كما هو حالنا الآن، وأخذنا نتحدث عن هيمينغواي وفولكنر. اعتبر نفسه أدنى منهما مكانة بكثير، فغضبت وقلت له يا سيد محفوظ! نحن أيضاً ورثنا كل هذا التراث في اللغة العربية! لستَ أقل منهما شأناً، وعليك أن تحترم نفسك أكثر! فصمت... وبعد أسبوعين نال جائزة نوبل! شعرت بالسعادة كثيراً لأنه ضمن المجموعة نفسها كان هناك من قللوا من شأنه؛ الأمر الذي تغير لاحقاً». حتى اليوم، يبدو لمحفوظ أن هناك مؤلفين عرب آخرين يستحقون الجائزة: «من القديم: طه حسين، وعباس محمود وتوفيق الحكيم. لدينا أيضاً جمال الغيطاني من الجيل الحديث، إضافة إلى الشاعر الفلسطيني محمود درويش، والسوري أدونيس... وآخرين لا أذكر أسماءهم أو لا أعرفها، بما أنني لا أستطيع القراءة منذ سنين، وقد ضاع علىّ الجيل الأكثر حداثة». نسأل محفوظ قبل أن نودعه بيوم: أتفكر في الموت؟ وبعد صمت يجيبنا: «الحقيقة أنني أعتاد عليه، فأنا قريب منه إلى حدّ أنني أستطيع رؤية وجهه أحياناً، وهو لم يعد غريباً بالنسبة إليّ».